مصعب بن عبد الله الزبيرى

وعدنا فى مقدمة هذه الطبعة بكتابة فصل عن مصعب بن عبد الله الزبيرى الذى قدم شعر ابن أبى ربيعة إلى القدماء ، وقد رأى القارئ أننا نقدناه فى المحاضرة الثانية نقداً رآه أستاذنا الدكتور طه حسين إلى الظلم أقرب منه إلى الانصاف ، فلنف بما وعدنا به ، ولنحدد بعد ذلك رأينا فى ذلك البحث الطويل الذى كتبه مصعب عن عمر ورآه أستاذنا الدكتور طه من ذخائر الأدب القديم (١)

مصعب الزبيرى هو ابن عبد الله بن مصعب أحد الشعراء المجيدين والخطباء المفوّهين ، الذين نادموا أوائل الخلفاء من بنى العباس ، وتولّوا لهم أعمالا . وكان خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة على أبى جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزبير ، فلما قتل محمد استتر إلى أن حج أبو جعفر المنصور ، وأمّن الناس جميعاً فظهر . وكان يُلقب « عائد الكلب » لقوله :

مالى مرضتُ فلم يَعُدنى عائدٌ منكم ويمرض كلبكم فأعودُ
وأشدُّ مُن مرضى علىّ صدودكم وصدود عبدكمُ علىّ شديد

وذكر الربيع بن يونس أنه دخل على المهدى واذا هو يكتب على

(١) حديث الأربعاء ص ١٤٠ ج ٢

الأرض بفحمة قول عبد الله بن مصعب

فان يَحجُبوها أو يَحُلْ دون وصلها مقالة واشٍ أو وعيد أمير
فلن يحجبوا عينيّ من دائم البكا ولن يُخرجوا ماقد أجنّ ضميري
وما برح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبةً لظهور
إلى الله أشكو ما أُلاقي من الجوى ومن نَفَس يعتادني وزفير

ويقول : أحسن والله عبد الله بن مصعب ماشاء [1]

ونعود إلى مصعب بن عبد الله فنذكر أننا لمّا نَصِلْ إلى الوقوف على تفاصيل حياته الأدبية ، وانما عرفنا مما ينقل عنه صاحب الأغانى انه كان من كبار الكتاب فى القرن الثالث ، واليه يرجع الفضل فى تدوين أكثر أخبار المغنين والشعراء ، وعبارته نقية واضحة سليمة لايشوبها تكلُّف ولا غموض وله شعر جيد لم يبق منه إلا القليل ، وفيه على نزارته دليل على أنه كان من المبدعين

ويظهر مما قرأناه من أخباره المتفرقة انه كان يعيش فى جماعة لها حظ من المال والجاه والجمال . فكانت حياته لذلك فيها نفحة وجدانيه لايظفر بها إلا من استظل بأعطاف الحسن الجامح والدّل الغَضُوب . كان متصلا بأحمد بن هشام أخى على بن هشام الذى كتب إليه اسحق الموصلى :

جُعلت فداك ، بعث إلىّ أبو نصر مولاك بكتاب منك إلىّ يرتفع

(١) راجع أخباره فى الجزء العشرين من الاغانى

عن قدرى ، ويقصر عنه شكرى ، فلولا ما أعرف من معانيه ، لظننت أن الرسول غلط بي فيه ، فمالنا ولك يا أبا عبد الله تَدَعُنا حتى إذا نسينا الدنيا وأبغضناها ورجونا السلامة من شرها ، أفسدتَ قلوبنا ، وعلقتَ أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ، فبأى شئ تستحل هذا ؟ أما ما ذكرته من شوقك إلىّ فلولا انك حلفت عليه لقلت :

يامن شكا عبثا الينا شوقه شكوى المحب وليس بالمشتاق
لو كنت مشتاقا إلىّ تريدنى ما طِبت نفساً ساعة بفراق
وحفظتنى حفظَ الخليل خليلهُ ووفيت لى بالعهد والميثاق
هيهات قد حدَثتْ أمورٌ بعدنا وشُغلتَ بالذات عن إسحق

قد تركتُ جُعلت فِداك ما كرهتَ من العتاب فى الشعر وغيره وقلت أبياتاً لا أزال أخرج بها إلى ظهر المربد [1] واستقبل الشَّمال ، وأتنسم أرواحكم فيها ، ثم يكون ما الله أعلم به ، وان كنت تكرهها تركتها إن شاء الله

ألا قد أرى أن الثواء قليلُ وأن ليس يبقى للخليل خليل

(١) المربد بالكسر ثم السكون وفتح الباء اسم موضع كان أهم أسواق البصرة ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . والمربد في الاصل كل شيء حبست فيه الابل ، وأنشد الاصمعى :

بيت بأبواب القوافي كأننى أصيد بها سربا من الوحش نزعا
عواصى الا ما جعلت وراءها عصا مربد يغشى نحورا وأذرعا

وإنى وإن مُنِّيت في العيش حقبةً كذى سفرٍ قد حانَ منه رحيل
فهل لى إلى أن تنظر العين مرةً الى ابن هشام فى الحياة سبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة وفى النفس منه حاجة وغليل

وقد توسط مصعب فى صحبة هذه الجماعة ولحقه من تقلّبها بعض الشر والسوء ، حين وقعت الجفوة بين احمد بن هشام واسحق بن ابراهيم ، فقد لقى احمدُ مصعباً فقال له : أما تستحى أنت وصباح بن خاقان المنقرى وأنتما شيخان من مشايخ المروءة والعلم والأدب أن يشيد بذكركما اسحق فى شعره فيقول :

قد نهانا مُصعبٌ وصَبَاحٌ فعصينا مصعبا وصباحا
عَذَلا ما عذلا ثم ملاّ فاسترحنا منهما واستراحا

فقال له مصعب : ان كان قد فعل فما قال إلا خيراً . انما ذكر أننا نهيناه عن خمر شربها ، أو امرأة عشقها ، وقد أشاد باسمك فى الشعر بأشد من هذا . قال : بماذا ؟ قال بقوله :

وصافية تُعشي العيون رقيقة رهينة عام فى الدنان وعام
أدرنا بها الكأس الروية موهناً من الليل حتى انجاب كل ظلام
فما ذَرَّ قرن الشمس حتى كأننا من العِىّ نحكى احمد بن هشام

وكان صباح بن خاقان نديماً لمصعب بن عبد الله . فقال عبدالرحمن ابن أبى عبدالرحمن وكان خليعاً من أهل البصرة

من يكن إبطه كآباط ذا الخَلْـ ... ـقِ فإبطايَ في عداد الفِقاح[1]
لِيَ إبطان يرميان جليسي ... بشبيه السلاح بل بالسلاح
فكأني من نتن هذا وهذا ... جالسٌ بين مصعب وصباح

وقد ظل مصعب وفيا لاسحق الموصلي إلى أن مات فرثاه بقصيدة بليغة نقتطف منها الكلمة الآتية :

أتدرى لمن تبكي العيون الذوارفُ ... وينهلّ منها واكف ثم واكف
نعم لامرئٍ لم يبق في الناس مثله ... مفيد لعلم أو صديق ملاطف
تجهز اسحقٌ إلى الله غادياً ... فلله ما ضمت عليه اللفائف
وما حملَ النعشَ المزجّى عشية ... إلى القبر إلا دامع العين لاهف
صدورهمُ مَرْضى عليه عميدةٌ ... لها أزمة من ذكره وزفازف[2]

ذهبت وخلّيت الصديق بعولةٍ ... به أسف من حزنه متردفُ
إذا خطرَات الذكر عاودن قلبهُ ... تتابع منهن الشئون النوازف
حبيبٌ إلى الاخوان يرزون مالهُ ... وآت لما يأتى امرؤ الصدق عارف
هو المَنُّ والسَّلْوَى لمن يستفيدهُ ... وسمٌّ على من يشرب السم زاعف
بكت داره من بعده وتنكرت ... معالم من آفاقها ومعارف
هى الدار إلا أنها قد تخشّعت ... وأظلم منها جانب فهو كاسف

(١) الفقاح جمع فقحة وهى حلقة الدبر (٢) عميدة : مجروحه

وقد كان فيها للصديق معرَّسٌ وملتَمَسٌ إن طاف بالدار طائف

سريعٌ إلى إخوانه برضائه وعن كل ماساء الأخلاء صارف

أرى الناس كالنسناس لم يبق منهم خلافك إلا حشوةٌ وزعانف

* * *

أراء مصعب فى الشعر

كان مصعب من الكتاب والنقاد الممتازين ، ولكن نقده لم يصل الينا بطريقة تُفصِّل ما كان له من قواعد وأصول ، فلم يبق إلا الاستئناس بما تفرق من آرائه لنرى كيف كان يفهم الشعر ، وكيف كان يحكم على الشعراء .

رأيناه يقضى فى شعر العباس بن الأحنف وعمرو العراف فيقرر أنهما « ما ابتذلا شعرهما فى رغبة أو رهبة ، ولكن فيما أحباه ، فلزما فنا واحداً لو لزمه غيرهما ممن يكثر إكثارهما لضعف فيه »

وهذا نظر بعيد من مصعب ، فان الشاعر الذى يكثر فى فن واحد ويجيد مع الاكثار أولى بالتقدمة ممن يجيد فى طائفة من الفنون ، وفى كلامه تقدير لصدق العاطفة التى تعد أساساً لجودة الشعر البليغ

وقيل له : إن الناس يستبردون شعر العباس بن الاحنف ، فقال . لقد ظلموه ! أليس هو الذى يقول :

قالت ظَلومُ سَمِيّةُ الظلم مالى رأيتك ناحل الجسم
يامن رمى قلبى فأقصده أنت العليم بموقع السهم

وهو فى هذا يذكرنا بكثير من القدماء الذين كانوا يحكمون للشعراء أو عليهم بشواهد من شعرهم من غير أن يبينوا مواطن الضعف ومواقع القوة ، وكذلك كان يرى أبا العتاهية أشعر الناس إذ قال .

تعلقتَ بآمالٍ طوال أى آمال
وأقبلت على الدنيا مُلِحًّا أى أقبال
أيا هـذا تجهَّز لـ ـفراق الأهل والمال
فلا بد من الموت على حال من الحال

ولعل أظهر آثار مصعب فى النقد هو كلمته المطولة فى خصائص عمر بن أبى ربيعة ، وقد تكلمنا عنها فى المحاضرة الثانية ، وأشار تلامذتنا الدكتور طه فى حديث الاربعاء إلى أننا أسرفنا فى نقده ، وأن صدر هذا الاسراف أننا لم نقدر كما ينبغي اختلاف المُثل الأدبية اختلاف العصور والاجيال

وهذا حق ، إذ كان النقد يتأثر باختلاف الاذواق ، وأنه لايجب أن يرضينا ما كان يرضى أسلافنا من قبل ، ولكن أليس فى كلام مصعب بعد نقدنا له شيء يستحق التقدير ؟

لقد بحثت فى ذلك طويلا ، فرأيت فى كلمة مصعب ناحية لها حظ عظيم من الاهمية ، وذلك أنه أراد التنويه بما أبدع ابن أبى ربيعة من التعابير ، وأحدث من الصُّور : من ذلك تحبير ماء الشباب فى قوله :

وهى مكنونةٌ تحيَّر منها فى أديم الخدين ماء الشباب

وغم الطير فى قوله :

سراعاً نغم الطير إن سنحت لنا وان تلقنا الركبان لا نتخبَّرِ

ومخالفته بسمعه وطرفه فى قوله :

سمعى وطرفى حليفاها على جسدى فكيف اصبر عن سمعى وعن بصرى

وإغلاقه رهن منًى وإهداره قتلاه فى قوله

فكم من قتيل ما يُباء به دمٌ ومن غَلِقٍ رهناً إذا لفَّه مِنى (١)

وجنيه الحديث فى قوله

فاجتنينا من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعَمرُك جانى

وقياسه الهوى فى قوله

وقرَّبن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قِسْن إصبعا

وتشكِّيه الذى أشجى فيه إذ يقول

(١) ما يباء به دم : لا يؤخذ له بثأر — وغلق الرهن فى يد المرتهن إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط

لعمرك ما جاورت غُمدان طائعاً وقصر شعوب أن أكون به صبًّا[١]
ولكنَّ حمّى أضرعتنى ثلاثة مجرَّمة ثم استمرت بنا غِبا[٢]
وحتى لو أن الخُلد يعرض إن مشت إلى الباب رجلى ما نقلت لها إربا[٣]
فانكِ لو أبصرت يوم سُويقةٍ
مُناخى وحبسى العيس دامية حُدبا[٤]
ومصرع إخوان كأن أنينهم أنين مكاكى فارقت بلداً خصبا[٥]
إذاً لاقشعرّ الجلد منك صبابةً ولاستفرغت عيناك من عبرة سكبا

وكلمة مصعب مثبتة فى الجزء الاول من الاغانى فليرجع اليها القارىء فقد يرى غير ما نراه

(١) غمدان : قصر باليمن كان من أعاجيب عصره . وقصر شعوب كذلك من قصور اليمن (٢) أضرعتنى : أضعفتنى وأذلتنى. مجرمة : كاملة — والغب من الحمى ما تأخذ يوما وتدع يوما (٣) ما نقلت لها إربا : ما حركت لها عضواً (٤) حدب جمع حدباء وهى الدامية التى تقوس ظهرها هزالا (٥) المكاكى جمع مكاء وهو طير يشبه القبرة أبلق الجناحين